النضال فى سبيل الطفولة

كلمة حضرة صاحب السعادة الأستاذ محمد العشماوى بك

نائب رئيس رابطة الاصلاح الاجتماعى

أرى واجباً علىّ أن أفتتح حديثى بشكر الوزيرين الجليلين : وزير المعارف ووزير الشؤون الاجتماعية ، إذ أغدق كل منهما على الرابطة كلمات التشجيع وأثرها بجميل العطف وصور عمها عطفي حديراً بتكريم ، وبذلك عظمت تبعة على الرابطة وأصبح فرضاً عليها أن تحقق ما يقتضيه ذلك التشجيع وأن تثبت كفايتها لهذا العطف ولوزيرين فاضلين أرد فى لباقة أن تقع الرابطة فى حرج شديد فتخذل من تكفلهما الرفيعة ومنهما لها صوراً لما تقوم به الجمعيات العاملة وفرض أن الرابطة مرّة هاتيكم الصور وتثبت بذلك مهمتها وتبقى عطف كاملاً على كاهل الرابطة . ونحن نقبل هذا الاحراج ونتحداه ، إن كنا ضعفاً فى الجهود واثقوى . ولنبدأ بما بدأت به الدعوة المحمدية الكبرى أعنى الايمان الصادق ، وإذا صدق الايمان فلا ارتداد ثم ولا نكوص . ولقد آمنا الايمان كله بفكرة الاصلاح الاجتماعى . ومضينا فى طريقنا — على قلة الموارد — تحدونا همة وتعيننا مثابرة . وها نحن أولاء نفتتح اليوم معهد دراسات الطفولة كما افتتحنا بالأمس دار كفالة الطفل . وسنفتتح فى القريب إن شاء الله دوراً للكفالة أخرى ، مفكرين دائماً فى كل ما يمكن انشاؤه من دور الخدمة العامة مستأنسين بذلك العون المادى والأدبى الذى نلقاه من الجهات الحكومية والشعبية ، منتظرين أن يزيد العون حتى تزداد به جهودنا إنتاجاً .

ولقد وقفت منذ أيام بمناسبة كهذه المناسبة فى محفل قريب من هذا المحفل أتحدث فى "معركة الاصلاح الاجتماعى" فصورتها معركة هادئة وحشودها وهادئة أسلحتها وميادينها وهادئة برامجها وخططها ، وقلت إنها هى معركة الكفاح ومعداتها صغيرة بالاضافة إليها . ولكى ننجح فى معارك أخرى يجب أن نصطنع معركة الاصلاح حمية وتسألنى أين العدة ؟ وهل وضعنا خطة ، وهل أعددنا جنداً ، وهل عيأنا ميداناً ، ثم عقدت وجوه شبه بين معركة الاصلاح ومعركة الحرب ، وأبنت أنه لا بد من قادة درسوا أدواء المجتمع المصرى دراسة تستند إلى إحصائيات دقيقة وموازنات نافعة ولا بد من روية فى وضع خطة تخرج بنا عن سياسة الارتجال وكذلك لا بد من قبس من العلم المفيدة فى لأم المتحضرة بما يلائم البيئة القومية ، وقلت فى حديثى إن أعداءنا فى المعركة الفقر والمرض والجهل والانحلال الخلقى ، ومحاربة هذه الأعداء تحتاج إلى صبر وإقدام ومثابرة . فليس فى معركة الاصلاح الاجتماعى هدنة ولا سلام ! ! !

وبينما أن أعدد الميادين التي تنشب فيها معركة الاصلاح ألمعت إلى ميدان الطفولة إلماعا وأنا اليوم أفرده بالحديث . وإذا ذكرت الطفولة فإنما أعني المستقبل ، أعني الجيل الجديد بل أعني الأجيال المتتابعة حتى تقوم الساعة فإنه إذا خبثت الطفولة خبث الشباب وخشنت الرجولة في الأعقاب وأعقاب الأعقاب . فطالب الزرع الصالح يعنى بالبذر الصالح فإن قصر في اختياره كان حصاده الخراب والهلاك . والطفولة في مصر مشكلة يجب أن يكون علاجها بلا الاصلاح ويجب أن يكون العلاج عاما في الأحزاب والحكومات والجماعات ، عاما في البيوت وفي معاهد التعليم ، بل يجب أن يكون فرض عين تتوافر له الجهود من المال والجاه والعلم والتجربة . فهل قامت المعركة في ميدان الطفولة ؟ وهل جمع القادة أمرهم لانفاذها ؟ وهل تدارسوا ما يتطلبه الانقاذ من خطط ؟ إن من صفة المؤمنين الجهر بالحق دون مواربة . ولا سيما فيما يتعلق بالشؤون الحيوية للأمة فأذنوا لي أن أكاشفكم بأن الطفولة في مصر مهملة لم تبذل لها حتى اليوم عناية جديرة بالاعتبار . فالطفولة مهملة في قصر الغني وكوخ الفقير ، فما في قصر الغني فالطفل مكفول له الغذاء الطيب والفراش الوثير ، ولكنه يتيم في حضن أبويه ، شقي وهو يتقلب في النعماء ، فقير وهو يلعب بالمال ، وذلك لأنه فقير الروح والنفس عديم الخلق والتربية . فأما الطفل في كوخ الفقير فكما علم : غذاء مقوص ، وكساء ملفق ، ومأوى غير صالح ، ونشأة كما يتفق أن تكون .

فهل هيأنا للطفولة مؤسساتها ؟ وهل راعيناها وهي جنين وحين ولدت وحين شبت ؟ وهل عرفنا أنها تطالب أولا وقبل كل شيء بوالدين صحيحين في الجسم والعقل ليستطيعا إنشاءها نشأة صالحة ؟ وهل التفتنا إلى أن الطفل كالمرآة تنطبع عليها أول ما تنطبع أعمال الوالدين ؟ وهل أعددنا الأم وهي التي تنيط الطفل عجينة تسويها على النحو الذي تفهم ؟ إني لأذكر أني قلت في بعض المواقف : لو تركت لي الأمر دون معقب لأخرجت البنين من المدارس وملأتها بالبنات حتى يتسنى لي إخراج جيل من الأمهات الصالحات ، ورحم الله شوقيا إذ يقول :

وإذا النساء نشأن في أمية ... رضع الرجال جهالة وخمولا

فالأمهات الجاهلات يرضعن أطفالهن جهالة صحية وجهالة اجتماعية تخرجهن مهازيل في العلم والجسم فيصبحون عالة على البلاد .

ولقد ذكر معالي وزير الشؤون الاجتماعية عبد الله ابن الزبير ورجا أن يكون في الأمة العربية أمثاله همة نفس وعظمة شخصية ، فلننظر كيف نشأ ذلك البطل الهمام : إنه نشأ في حضن أسماء بنت أبي بكر وكيف كانت أسماء ؟ حسبكم منها أنها هي التي أخرجت ولدها هذا ليلقى الموت حين ضيق الحصار عليه الحجاج بن يوسف ، وقالت له : إن كنت تدفع عن حق

فأقدم ولا تسكت عنه فقال لها : إنى لأخشى أن يمثلوا بى بعد القتل . فأجابته إن الشاة يا بنى لا تألم السلخ بعد أن تذبح . فانظروا أى أم كانت أسماء ، ولا تعجبوا بعد ذلك أن يكون ولدها عبد الله على العظمة التى سجلها له التاريخ .

ولست فى هذا المقام أتحدث عن طفولة العاصمة ونحوها من المدائن و إنما أتحدث عن طفولة القطر كله أعنى طفولة ستة عشر مليونا من أبناء مصر يسكن الريف من بينهم ثلاثة عشر مليونا أو أكثر . و إنها لمهمة شاقة أن نعد الأمومة فى هذا العدد العظيم ولكن يجب أن نبدأ الجهاد وأن نبذل المال فى سخاء فلا خير فى مال ليس وراءه رجال ، ولا خير فى عهود تحسب فى تاريخ الأمة وهى خلاء من الاصلاح .

والرعاية الصحية فى مقدمة ما تفتقر اليه الطفولة ، فهل أنشأنا فى أنحاء الحواضر مؤسسات صحية تسد حاجة البلاد ، وهل يجمل هذا الركود فى بلد قيل فى احصائياته إن كل فرد تكمن فيه ثلاثة أمراض على الأقل ، وأين المؤسسات فى الريف وكلنا يعرف أنها لا تبلغ عشر معشار ما يجب أن يكون ؟

ولطالما قلت إن من العبث أن نلقى العبء دائما على الحكومة فإن لها من المشاغل العامة ما يقف جهدها دون الغاية المنشودة ، و إنما يجب أن تنهض الأمة بنفسها وتتولى أمرها ان كانت تريد لها بقاء محمود الأثر وتبغى أن تستخلف خلائف جديرين بالنسبة الى مصر وتاريخ مصر . وهنا يقوم واجب الأغنياء فإن لزاما أن يكون فى مالهم حق معلوم لهذه المؤسسات المرجوة بل يقوم واجب الطبيب والكفء والمجرب لها أجدر أن يكون لكل مؤسسة حق من وقت الطبيب وجهد الكفء ومعرفة المجرب ومال القادر . فاذا عنينا بصحة الطفولة بنينا أمة غير مريضة منهوكة ، والمعول فى الأمم على سلامة الصحة لا على زيادة العدد وما خير أبناء يعدون ثم لا يلبثون أن تحصدهم العلل أو يعتريهم الهزال .

فأما الرعاية الاجتماعية للطفولة فهى من عويص المشكلات لأنه يجب أن نتفق على نوع المجتمع الذى نريده وننشده ونعرف ماذا يتطلب المستقبل لأولئك الأطفال الذين خلقوا لزمان غير زماننا . والعالم يتمخض الآن عن حياة كدح وشقاء وامتحان . فالنشء الجديد أحوج ما يكون إلى أن تربى فيه غرائز الطموح والشجاعة والصبر . ونحن فى مصر لما نتفق بعد على خطة السير بالأمة فى طريق الحياة . وما زلنا نتراشق بالتهم . فهذا رجعى يعود القهقرى ، وهذا مجدد يتجاوز الحدود . فعلينا أن نجمع كلمتنا على نوع الثقافة الذى نرضاه . ووجهة الحياة الاجتماعية التى نسعى اليها حتى نمضى فى طريقنا صفا .

ويحسن بى هنا أن أشير إلى نظام التعليم الأولى الذى قصد به إعداد الطفل الإعداد الثقافى . فهل وفى بالفرض ، إننا نسمع فى كل يوم صيحة ونقرأ فى كل مناسبة دراسة

إلا أنه يمكن أن يقال على أية حال إن الأطفال في معاهد التعليم الأولى لا ينعمون بالرعاية التي ترجى للطفولة . ولم يهيأ لهم ما ينعمون به في الهيئة الاجتماعية لرعاية الأطفال ، ولم تعد الأمكنة الصالحة لاستفادتهم استفادة صحية مثمرة . وأمامنا مشكلة التغذية وقد ارتفعت في شأنها الأصوات ثم هدأت الثورة وسكنت عواطف البر . وطوى المشروع الذى رحب به أنصار الإصلاح . ولو تقصينا أسباب ذلك الإخفاق لوضح لنا أنها جميعا ترجع الى سبب واحد هو أن التعاون الاجتماعى معدوم في المجتمع المصرى . فكل يعيش لشأنه وجاهه ومتاعه .

فمتى نفهم أن المال وحده ونسك الزكاة تؤدى بنا ، ومتى نفهم أنه إذا لم تنجح الدعوة الحرة في حث على الزكاة صار واجبا أن نقيم أساسها بقوة التشريع فنفرضها على الأكفاء والقادرين وترعى المحرومين والمعرضين المتضررين منهم الفقراء . وإنه لخير أن نقسو ونشتد في سبيل المصلحة العامة حتى لا ندع البلاد تهوى بها في دهاليز الفناء .

ولتسمحوا لى أن أقول إنهم القادرون على إنقاذ الطفولة مع التقصير عن القيام بهذا الواجب إنهم يريدون خراب هذا البلد في حاضره ومستقبله . فهم يرون أعداء الطفولة من الفقر والجهل والمرض تغير من كل ناحية ويقعدون مكتوفة أيديهم لا يبدون حراكا فلنفرض عليهم الواجب فرضا ولنجند القادرين على الإصلاح جميعا .

الحق إن مشكلة الطفولة فوق ما نتصوره من الخطر ، والحق أن إنقاذ الطفولة يجب أن يكون برنامج الجماعات وموضع تشجيع الحكومات . فلقد خسرنا بإهمال الطفولة خسارة جسيمة يصورها لكم مدير في تقرير له أحنى إذ يقول :

" لقد لمست الذكاء في الطفولة المصرية عن كثب فهو في أرفع مستوى . ثم رأيته بعد السادسة يجمد شيئا فشيئا . وذلك راجع للبيئة . فالأم عامل من عوامل إطفاء الذكاء ، والأب عامل أيضا ، والمدرسة قد تكون عاملا كذلك على أن ما تعلمه المدرسة يفسده البيت فهما يتعارضان "

فلنؤمن بما قوى الشمس بمشكلة الطفولة ، ولنعمل حازمين راشدين لإنقاذها ، ولنعلم أننا إن أعددنا الطفل أعددنا الشعب الكريم العزيز ، وقد قال شوقي :

ورب قطير قوم علموه ... سما وحمى المسومة العرابا
وكان لقومه نفعا وفخرا ... ولو تركوه كان أذى وعابا
فعلم ما استطعت لعل جيلا ... سيأتي يحدث العجب العجابا

وها هى ذى رابطة الإصلاح الاجتماعى تقوم في هذا الميدان الواسع بمواردها القليلة منشئة معهد دراسات الطفولة وهى تعلم أن سيحدث هذا المعهد أثرا محدودا في دائرة محدودة ، ولكنها على أية حال تعطى المثل وتحفز الهمم آملة أن تقوم بجانبها الجمعيات التى تمد يدها للنهوض بجانب من هذا العبء ، فالقليل مع القليل كثير ، والضعف الى الضعف قوة ، والله نصير العاملين ،،